



وانفلت عناصر الفرقة الرابعة في حي ركن الدين بدمشق ليمشطوه حارةً تلو الأخرى إلى أن اقتربوا من حارة عجك وهناك تمادوا ببطشهم وقد طغى في المكان صوت الرصاص الذي أودى بأرواح عشرة شباب وجرح العديد من الناس، فعنواصر الفرقة قد طوقوا المكان وأخذوا يتقدمون ويطلقون الرصاص تجاه أي مصدر لصوت "الله أكبر" أو بكاء أو استغاثة، وبعدها أمنوا أي مقاومة محتملة قد تحول بينهم وبين الناس، قاموا بخلع الأبواب وتدنيس البيوت باقتحامها، وحرصوا على تصفية أي ذكر يقاومهم أو يعاندهم، وأثناء انتقالهم من بيت إلى آخر صرخ عليهم شابٌ شجاع "الله أكبر عليكم" ثم ركب هارباً قبل أن يصيبوه برصاصهم، فأمر الضابط جنوده بإحضاره إليه مكبلاً كي يعلمه لمن الكلمة في هذا البلد... فانطلق الجنود

يسعون في أثره إلى أن استدلا على بيته فدخلوه عنوة ووجدوا الشاب وقد تحصن خلف أثاث غرفته فارتموا فوقه يتكلبون على أطرافه المستضعفة دون أن تغيبه صرخات أمه التي انهارت وهي تحاول أن تبعد الجنود عنه..

- اتركوه كرامة لله... ما لي غيره ، فمن شهر توفي والده وتركنا...

- ابتعدي وإلا قتلناك معه..

- حباً بالله وكرامة للرئيس اتركوه ، هذا وحدي ربيته بيدي وليس له علاقة بالسياسة..

- قلت لك ابتعدي ولا تذكري الرئيس على فمك القذر..

- كرامة لله ، كرامة لأمك اتركه ما لي غيره..

فقام الجندي برفسها وأنثاء ذلك كان بقية الجنود يربطون الشاب ويشبعونه ركلاً ورفساً...

- اسمك يا كلب..

- محمد برهان خطاب.. اتركوني ما عملت شي...

ثم يصرخ على أمه وقد يأس مقاومة هؤلاء الأوغاد: أمي ابتعدي، لا تقربني...

وما إن رفسها ذلك الجندي حتى صار صرخ الشاب مدوياً في الحرارة، ولكن من يتجرأ على نصرته والاقتراب من هذه الغرفة التي انقلبت زنزاناً تحقيق في قبو فرع أمني...

- مين قلك إذا بتقول الله أكبر منموت نحنا؟ قول الله أكبر..

- الله أكبر..

- ما اخفيانا!! ثم يضحك الجندي حتى بدا وكأنه ثمل..

- شو بدكم مني؟

- كنت هربان يا كلب؟..

- لا...

- كذاب، شفناك وأنت تهرب، أكيد في سلاح بالبيت...

- لا...

- بل، اعترف، نحنا منعرف كل شي..

- قلك لك لا، فتش البيت..

- شاطر تقول لا يا كلب... والله لنربى بك الحرارة يا واطي يا ابن السافلة...

فطرد الجنود أمه خارج بيتها ثم ألقواها بعيداً عنهم كي يخلصوا من عويلها، وفجأة ودونما رحمة، سكبوا على محمد مادة مشتعلة وقد رموا فوق ظهره ولاعة مشتعلة، فراح يبول ويتلوي محاولاً أن يفرك جسده المهشم بالأرض ليتخلص من النار التي عذابها أشد من بساطير الجنود، ولكن من أين أن ينجو وجسده مكسر ويديه مقيدتين؟...

النار تأكل مهلاً وصرارخه يدمي أهالي الحرارة كلهم بسبب عجزهم على نصرته أمام تهديدات الجنود، وسرعان ما التهمت النيران البيت كاملاً وتركته جثة متفحمة ومتفسخة ورائحة المكان كله شواء، ووحده فم محمد ما زال واضح المعالم وهو مفتوح وكأنما محمد يستصرخ على أي شجاع يقدر على تخليصه من هذا الجحيم...

وبعد أن انقلب البيت فحماً ورماداً بمن فيه، اقتربت أم محمد من البيت على هدوء وفكها الأسفل يرتجف من بكتها المكبوت

وأصابعها تتحسس حيطان البيت وقد أسودت وهي تهذى باسم ابنها، نظرت إلى جثة ابنها المتفحمة وقد تهطل جفناها وانسكبت الدموع من مقلتيها ثم انفجرت تبكي مستجديةً الخلاص...
وما إن خرج الجنود حتى اندفع الأهالي ليروا ماذا خلفت النيران وما حصل بالشاب الصريح، ولكن لسان حالهم الصمت والبكاء، فتجرأ أحدهم على الكلام ليدعوا الناس إلى دفنه رحمة بأمه:
- إكرام الميت دفنه...

- كنت اسمعنا صوتك لما كان يحترق. أجايه شخص يبكي بصمت.
- لا تحكي فصوتك ما كان أحسن من صوتي، لنعمل له جنازة تليق بشهيد وبلا جدال..
- ولاك أنت وإيابه بدمك تعلموا جنازة يا كلاب وتعلموا مظاهره؟ هكذا انبرى أحد العوainية مهدداً أهل الحارة بسلطة الأمن، فارتجم الرجال وقد ركعوا أمامه هذا الخسيس خوفاً:
- سيدى والله ما قصدت غير نواسي أمه..
- ادفنوه بسرعة وبلا جنازة..
- حاضر، حاضر...

وتم حفر القبر على عجل ثم أودع به الشهيد وعيون الأمن تراقب من كان حاضراً وقد حرصوا على حضور عدد قليل جداً من الناس عند دفنه وذلك منعاً من خروج مظاهرة تناصر الشهيد...
لأنه قال الله أكبر.

المصادر: